المثقف العربي وإشكاليات العصر : قراءة في رؤيا العالم رواية "الحب في المنفى" لبهاء طاهر أنموذجا

رحايمية زينب❖ جامعة محمد الشريف مساعدية❖ سوق اهراس❖ الجزائر

ملخص

يتمحور موضوع هذا المقال الموسوم بـ: "المثقف العربي وإشكاليات العصر: قراءة في رؤيا العالم رواية الحب في المنفى لبهاء طاهر أنموذجا " حول أحد المفاهيم الأساسية التي بلورها الناقد "لوسيان غولدمان" وهي : "رؤيا العالم "، هذا الوسيط الذي ابتعد بنا عن آلية العلاقة بين الإبداع الأدبي والواقع الذي كان الهاجس المسيطر في أكثر المقاربات، ليمكننا المنهج الغولدماني بمفاهيمه من فهم أعمق للنصوص، إذ يساعدنا في تفجير الطاقة المخبوءة للنصوص ومن تم فهمها في فضائها الطبيعي بمنأى عن الأحكام الدوغمائية الإسقاطية .

ولما كانت فئة المثقفين هي الأكثر حضورا والأبرز في الرواية، فقد حاولنا إبراز رؤيتها للعالم، إذ بدت اغترابية انهزامية، لنقرأها في سياقها السوسيوثقافي ،حيث ساهمت مجموعة من الظروف والأوضاع في تفعيلها، فيتمكن "بهاء طاهر" من تمثلها لتتجلى فكريا في عديد القضايا التي عالجها هذا النص القلق المضطرب، الذي عكس الاضطراب الذي يعيشه المثقف العربي .

الكلمات المفتاحية: المثقف العربي، رؤية العالم ، رواية الحب في المنفى ، بهاء طاهر.

Abstract

The article entitled: "The Intellectual Arab and the Contemporary Issues: A Reading in the World View in Bahaa Taher's novel "El Hob Fi Elmanfa" (Love in Exile) as a Model" deals with one of the basic concepts presented by the critic Lucien Goldmann which is "World view", this mediator which distanced us from the mechanism of the relationship between literary creativity and reality which was dominant in most approaches. The Goldmann approach enables us to deeply understand the texts in their natural space without any dogmatic and projectionist judgments. As the class of intellectuals was the most present and prominent in the novel, we attempted to highlight its view of the world which seemed defeated and alienated to read it more in its sociocultural context where a number of conditions and circumstances have contributed to its activation. Bahaa Taher was able to represent it to intellectually reflect many issues addressed in this the troubled and anxious text which reflects the perturbation and confusion of the Arab intellectual

Keywords; *Intellectual Arab, World View, El Hob Fi Elmanfa, Bahaa Taher*

مقدمة :

يعد منهج "لوسيان غولدمان" (Lucien Goldman) البنيوي التكويني من أهم المحطات في تاريخ النقد الاجتماعي (socio critique)، فهو بأدواته الإجرائية وعدته الاصطلاحية قد تجاوز قصور المقاربات السابقة للنصوص وأعطى إمكانات جديدة في قراءتها، إذ حررها من دكتاتورية الإيديولوجية التي ظلت الرهان الأساس في الكتابات الماركسية، وحطم مرآة الانعكاس التي كرست موت الإبداع بجعله صورة فوتوغرافية آلية للواقع . كما أنه هاجم البنيوية الشكلية في رؤيتها المحايثة للنص كبنية شكلية مغلقة لا صلة لها بالخارج حيث تلغى فاعلية الذات والتاريخ، فجمع "غولدمان" بين الجانبين : الشكلي الجمالي، والمضموني الإيديولوجي للأعمال الأدبية .

نحاول في هذه الورقة البحثية أن ندرس رواية "الحب في المنفى" لبهاء طاهر من زاوية رؤيا العالم ،مع بحث الواقع الاجتماعي والثقافي الذي ساهم في تفعيلها ومدى استجابة النص لهذه الرؤيا وتأثيرها عليه على المستوى الفكري خاصة .

1- لمحة عن منهج لوسيان غولدمان : تتلخص أهم مفاهيمه النقدية فيما يلي:

1-1 **الفهم والتفسير** (la compréhension et l'explication) : في التعامل مع النصوص الأدبية تنطلق المقاربة البنيوية التكوينية من جانبين أساسين هما الفهم : ونقصد به " التحليل البنيوي للوحدات الداخلية للعمل الأدبي من أجل اكتشاف دلالتها الخاصة ومعرفة القانون الذي يحكمها والنسق الذي يسيطر فيها [1]" .

أما التفسير: فيتم فيه ربط هذه البنية ببنية أخرى أوسع وأشمل منها [2] . والمرحلتان عند "غولدمان" مترابطتان لا انفصال بينهما، فإذا كان الفهم تقيد تام بالنص وبنيته الداخلية فإن التفسير هو انفتاح البنية على الخارج .

[1] - أحمد سالم ولد أباه : البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، دراسة لفاعلية التهجين، المكتبة المصرية، الإسكندرية، 2005، ص 49 .

[2]- المرجع نفسه . ص 52 .

وهكذا انطلق غولدمان من البنى الفنية لتراجيديا راسين (Racine) وخواطر باسكال (Pascal) التي صاغت رؤيا مأساوية، ولكنه لم يتوقف عندها كهدف للدراسة وإنما وجه هذه البنى الفنية لتصبح بنى اجتماعية قادتنا إلى وعي فئة الجانسينية (Jansénisme) .

2-1 **الوعي الفعلي(القائم)** (La conxience réelle) : ينحصر في مجرد وعي بالحاضر فهو يرتبط بالمشكلات التي تعانيها الطبقة أو المجموعة الاجتماعية[3] .

3-1 الوعي الممكن (La conxience possible) : " يرتبط بالحلول الجذرية التي تطرحها الطبقة لتنفي مشكلاتها، وتصل إلى درجة من التوازن في العلاقات مع غيرها من الطبقات أو المجموعات [4]" . إذن فالوعي القائم يرتبط بحاضر ومشاكل الطبقة الاجتماعية، في حين يرتبط الوعي الممكن بالآمال والاقتراحات والحلول التي تطرحها تغييرا لواقعها .

4-1 **البنية الدالة** (la structure signifiante) : من أهم المفاهيم التي تقوم عليها البنيوية التكوينية، إذ تمكننا من فهم أعمق للأعمال الأدبية من خلال فهم النسق الذي يحكمها ذلك أن " المؤلفات والأعمال ذات القيمة تتميز بوجود تناسق داخلي، بعدد من العلاقات الضرورية بين العناصر المختلفة التي تشكل هذه الأعمال وبين المضمون والشكل [5]". وكما يؤكد "غولدمان" على ضرورة التحليل الداخلي والاهتمام ببنية العمل الأدبي، فإنه يركز على إدراج هذه البنية ضمن الوعي الجماعي وفي إطارها الاجتماعي، على اعتبار أنها بنية ذات دلالة .

5-1 **رؤيا العالم** (la vision du monde) : لقد رفض "لوسيان" الفكرة التي تعتبر الإبداعات الأدبية نتاجات لعبقرية فردية، كما كرسها التحليل النفسي وتجاوز نظرية الانعكاس التي كرسها التحليل الاجتماعي، فوضع وسيطا بين العمل الأدبي والواقع يتمثل في

[3] - جابر عصفور : عن البنيوية التكوينية، فصول، القاهرة، عدد 2، يناير 1981، ص 85 .
[4]- المرجع نفسه، ص 85 .
[5]- لوسيان غولدمان وآخرون : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2، 1986، ص 47 .

رؤيا العالم ويقصد بها " هذا المجموع من الطموحات والمشاعر والأفكار التي تضم أعضاء مجموعة (وفي الغالب طبقة اجتماعية وتجعلها في تعارض مع الجماعات الأخرى[6]" .

تتجاوز رؤيا العالم الذات الفردية، لأن هذه الذات هي دائما جزء من بنية أكبر منها هي الذات الجماعية، المبدع الحقيقي للنص في نظر "غولدمان" ومن ثمة فإن البحث عن إيديولوجيا المبدع أمر يشوبه كثير من التمويه والتضليل، فكثيرا ما نجد تفاوتا بين الانتماء الاجتماعي والطبقي للكاتب وبين انتمائه الفكري ،ويضرب غولدمان مثالا ببلزاك . H) (Balzac الذي كان أرستقراطي المنشأ لكنه في رواياته هاجم الأرستقراطية ،فهناك تعارض موجود بين انتمائه الواقعي وعالمه الأدبي .

تعرض "غولدمان" لهذا المفهوم في دراسته خواطر (Pensées) باسكال (pascal) ومسرحيات راسين (Racine) ،فبين أنها محكومة ببنية دالة تكررت فيها مقولات: الله، العالم، الإنسان مما كرس رؤيا مأساوية للعالم، ثم قام بقراءة هذه الرؤيا في فضائها الطبيعي (جماعة الجانسينية) .

وجد غولدمان أن أساس الرؤيا هو الوضع المأزوم لهذه الفئة، نتيجة نزع ثوب النبالة) (Noblesse de robe فبعد أن كانوا الأحلاف الطبقيين للملك وأصحاب الامتيازات في القرن السادس عشر، أصبحوا يعانون الاستبعاد والهامشية وخيبة الأمل في عالم تخلى عنه الله، مما دفعهم إلى هجرة الحياة السياسية والاجتماعية والاستناد إلى قيم مطلقة وجدوها في المسيحية .

يتضح تركيز غولدمان على الذات الجماعية منتجة رؤيا العالم، دون إهمال المبدع الذي تنبع عظمته وأصالته في التماهي مع الجماعة والتعبير عن رؤيتها ونظمها في عمل ينطوي على درجة من التلاحم والوحدة، وذلك في قالب جمالي بعيدا عن التبسيط والآلية .

بعد هذه الإطلالة على المنهج الغولدماني لنا أن نتساءل : ما هي رؤيا العالم السائدة في رواية "الحب في المنفى" لبهاء طاهر ؟ ومن هي الفئة الاجتماعية التي تؤطرها ؟.

[6] - Goldman : le dieu caché Etude sur la vision tragique dans les pensées de Pascal et dans le théâtre de racine , Gallimard , paris 1956 ,p 26 .

إن نظرة فاحصة في نص الرواية، تظهر لنا الرؤيا "الانهزامية الاغترابية" المتحكمة في بنيتها، أنتجتها زمرة اجتماعية انتمى إليها "بهاء طاهر" واستطاع تمثل رؤيتها وبنيتها الذهنية وتصوراتها في وحدة دالة . هذه الفئة هم "المثقفون" وتحديدا "المنهزمون" . وقد تمظهرت هذه الرؤيا في الخطاب الروائي من خلال مجموعة من القضايا :

أ / إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب :

في مراجعاتنا العديد من الروايات العربية نجد تردد هذه العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب بكثرة، بل أن الكثير منها يدور حول محور واحد تقريبا لم يغادر النموذج الطرابيشي، الذي نلمس فيه محاولات الإعلاء من الحضارة الشرقية بذكوريتها في مقابل ضعف الغربية بتأنيثها .فهناك فهم يتكرر لهذه العلاقة لا يكاد يبرح دائرة الصراع والغضب والانبهار الذي يسكن الشرقي إحساسا منه بدونية موروثة تتنامى أمام زحف الغرب الذي ظل موطن الأسرار والجبروت .

هل كان "بهاء طاهر" أحد المتبنين لهذه النمذجة وهذا الطرح فكان أحد عصافير الشرق التي تروي تجاربها في الغرب وصدامها مع هذه الحضارة ؟ أم أنه كان من المنبهرين بحضارة الغرب مهد العقلا نية، المادية والقوة وهذا ما يصعد بالمقابل روحانية الشرق وضعفه وسلبيته ؟ كما ذهب إلى ذلك الناقد "محمد عبد الوهاب" في دراسة نص الرواية ضمن كتاب "قراءات وإبداعات معاصرة: مقالات في النقد الأدبي" حين قسم شخصيات الرواية إلى مجموعتين تعزف كل منهما لحنها الخاص " المجموعة العربية والإفريقية ذات التكوين الهش والفكر المضطرب والهمة الخائرة والانفعال السطحي القادر فحسب على إهدار الطاقة في الثرثرة أو السلوك العقيم[7] "، وتضم: الراوي ،إبراهيم، يوسف، ألبرت، منار، شادية، وخالد، أمام المجموعة الأوروبية التي تتميز" بالصلابة والسلوك الإيجابي وطول النفس والقدرة على

[7]- محمد عبد الوهاب : قراءات وإبداعات معاصرة، مقالات في النقد الأدبي، دار الوفاء، الإسكندرية، 2000، ص 44 .

التعاطف مع آخرين من أقصى الأرض بالفعل لا بالكلام عالي الصوت[8] "، وأبطالها بريجيت، والدها، مولر، برنار، إلين والممرضة النرويجية . مدعما بحثه برحلة استقصائية تعرض فيها لنقاط الضعف والخور النفسي، الفكري والوجداني الذي هو في نظره ثمرة أساليب في التربية والتعليم والتثقيف للمجموعة الأولى وبالطبع كانت نقاط تجاوز وقوة للطرف الآخر، لنخرج من العرض بالنمط المرتجى الذي ترسخ في الوجدان العربي: روحانية وسلبية الشرق مقابل مادية وإيجابية الغرب .

طبعا لا أحد ينكر حرية الناقد في قراءة النصوص ولكن يبدو أن بساطة لغة "بهاء طاهر" قد خدعت الناقد فاختصر ذلك التعدد والثراء في جانب واحد، في حين أن هناك أبعادا أخرى لهذه الإشكالية،ولتكن تجربة الغربة وعلاقة الحب مدخلنا إليها .

لقد استفاد الكاتب من تواجده في العديد من البلدان الغربية حين عمل بالترجمة فعايش بذلك واقعا ثقافيا اجتماعيا وحضاريا مغايرا لتراثه الشرقي الذي لا نحسه اتخذ موقف الانتماء أو التحيز إليه . إذ كشفت علاقة حب الراوي مع بريجيت عن العالمين معا " كنت قاهريا طردته مدينته للغربة في الشمال وكانت هي مثلي أجنبية في ذلك البلد [9]". فكل شخصيات الرواية الرئيسية لم تختر المنفى وإنما،قر عليها مضطرة، وهذا ما يحيلنا على الظروف الاجتماعية التي تمر بها البلدان العربية ومصر منها، تضطر أبناءها للهجرة والفرار بحثا عن ظروف أحسن وعن سياسة أحكم وأعدل .

في هذه الرواية عرفت هذه العلاقة الحضارية تحولا كبيرا، إذ أن شرق الروحانيات والجمال والسحر أصبح صورة أخرى للغرب، لم يعد محتاجا إلى منتقم طرابيشي ولا لغيره، فقد أزاحت رياح الزمن عبق بخوره ليتحول بدوره إلى مستنقع آسن تفوح منه رائحة العفن والظلم، بل أن شخصياته تفضل البقاء في المنفى على العودة إليه .

[8]- المرجع نفسه، ص 44 .
[9] - بهاء طاهر: الحب في المنفى، دارالآداب، بيروت، ط 1، 2000، ص 05 .

كما أننا لا نلمح إحساسا بالدونية أو النقص الذي يستوجب التعويض أو الشعور بضياع الهوية، فالراوي وزميله إبراهيم كمصريين وعربيين وشرقيين يقفان أنداد جنبا إلى جنب مع الدكتور مولر وبرنار وبريجيت .

ونجد أن حب الراوي لبريجيت لم يكن حبا إيروسيا أو أحد نزوات الاندفاع الشبابية فالراوي كان ناضجا بل " عجوزا وأبا ومطلقا[10] " وبالتالي فقد صقلته تجاربه في الحياة . فهذه العلاقة الإنسانية كانت طبيعية و حتمية، إذ هي واحة الأمان والملاذ لطرفين غريبين أعوزت الحياة كلا منهما للآخر، لعل هذا التوحد يمدهما بأسباب القوة، فكان ذلك الحب ساميا مترفعا عن أدران الجسد .

كما أننا لم نجد ذلك العنف والحقد والكره الدفين الذي يجعل الأبطال يرددون نغمات العيد في فرح الشرق، حيث فقد أو مات كل إحساس بالانتماء بل هناك حزن وألم يخيم فكلاهما ضحية التسلط في الشرق والغرب معا .

غاص "بهاء طاهر" في المجتمع الغربي تماما كما فعل مع المجتمع الشرقي العربي، مصورا طباع الناس وأخلاقهم وعلاقاتهم فهم في الغرب " لا يحبون الأجانب ولا يختلطون بهم [11]"، كما انه غرب " الأناقة المحكمة ... وربطات العنق الموقعة والسترات من بيوت الأزياء الراقية[12] "التي بقدر ما غطت أجسادهم فقد كشفت عن زيف أرواحهم وبراغماتية علاقاتهم التي ينشدون بها المال والنفوذ فقط وتلغى معها الإنسانية والتلقائية والبساطة فهم لا يرحبون بالعلاقات الاجتماعية التي لا تفيد .

لقد أظهر "بهاء" في تناوله هذه العلاقة نظرة طبقية بين فيها عنصرية الشمال أو المجتمع الأوروبي الأبيض اتجاه الإفريقي الأسود . أراد أن يكشف عن وجه آخر للحضارة الغربية يختفي وراء بريق الشعارات والنظريات المزيفة ويبرز قمة الانحطاط الإنساني وقد كانت مطيته لذلك قصة زواج بريجيت النمساوية من ألبرت الطالب الإفريقي .

---

[10] - المصدر نفسه، ص 05

[11] - المصدر نفسه، ص 47 .

[12] - المصدر نفسه، ص 87 .

أراد الروائي أن يعالج هذه القضية التي استمرت حتى عصرنا الحاضر حيث " تتشكل ثنائيات ضدية دائمة: إغريق/ برابرة، أحرار / عبيد، مؤمنون/ كفار، متحضرون/ متخلفون ومهما تعددت صيغ التعبير فليس ثمة اختلاف في محتوى التعبير، العالم في جوهر التفكير الفلسفي الغربي لا ينبغي إلا أن يكون كذلك : مركز ومحيط [13]"، ودائما تمنح المشروعية لترويجها وحضورها أكثر إرضاء لنزعات مرضية نرجسية.

لقد بينت علاقة الإفريقي الأسود والأوروبية البيضاء أبعادا حضارية وثقافية، لتسيطر مجددا نزعة التفوق العرقي والجنسي التي حكمت منذ العهد اليوناني فتوجه علاقة الغرب بغيره وخاصة الشرق . فرغم التطور والقول بالعقلانية والتاريخية التي آمنت بها أوروبا بل اعتبرتها حكرا عليها لم تخلصها من نظرة غير تاريخية، سكونية حين جمدت الحضارة الشرقية في صورة ارتسمت في مخيالها فترسخ لديها إفريقيا التي يلفها حجاب الليل الأسود والإفريقي الذي يمثل " الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المروضة تماما ولا بد لنا إن أردنا أن نفهمه فهما حقيقيا سليما، أن نضع جانبا كل فكرة عن التبجيل والأخلاق وكل ما نسميه شعورا أو وجدانا فلا شيء يتفق مع الإنسانية يمكن أن نجده في هذا النمط من الشخصية [14]"، فيرسم بهاء مرة أخرى بعدا إنسانيا يعكس نشدان عالم أفلاطوني، يمحى معه كل تعصب .

تعرفت "بريجيت" على "ألبرت" الذي كان مطاردا من بلده ولكنه كان واثقا من نفسه معتزا بانتمائه الحضاري، فلم يبال بتلك الكلمات الغليظة عن " السود أو الإفريقيين القرود [15] "التي تحط من آدميتهم وتكشف عن تفكير متخلف، ولم يكن مثل البقية فقد كان همه السياسي ومعركته ضد النظام في بلده، ويقينه برسالته في الحياة أهم من إرضاء نزعات

[13] - عبد الله إبراهيم : المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية، بيروت، ط 1، 2004، ص 594 .
[14] - المرجع نفسه،ص 172 .
[15] - بهاء طاهر : الحب في المنفى، ص 135 .

البيض الإكزوتية (Exoticism [16]) " لمعرفة الشيء الغريب ...لذلك الرقص الجنوني بالساعات في النادي ... لتلك الفرحة الإفريقية التي لا تنتهي والجسد يرقص وأهم من ذلك الفضول للتحقق من متعة ذلك الجنس الإفريقي الذي يحكي عنه الجميع[17] ". أراد "بهاء طاهر" تحطيم ذلك الجدار السميك الذي بنته ترسبات فكرية، بعلاقة زواج ألبرت وبريجيت، هذه العلاقة التي يسمح بها على أنها نزوة عابرة لا ينبغي أن تتجاوز الحد -على حد تعبير والدها- أما الزواج فهو " جريمة دنس للجنس الأبيض كله لا يغفره أحد في بلدتنا [18]" ليرتطم "بهاء" بجدار الاستعلاء يزداد متانة، ويقهر "ألبرت" الذي عاد إلى إفريقيا مهزوما وقد أجبره الأبيض على تطليق "بريجيت" .

ب / جدلية الماضي والحاضر :

كان لهذه البنية حضور واضح وقوي حتى أنها كانت من أبرز ملامح الرؤيا المأساوية في الرواية، عكست مدى القلق والصراع الذي يفترس الأبطال حين كشف "بهاء طاهر" عن عطب آخر ينهشنا، يبدأ من اللحظات الأولى للوجود تلك الخطيئة التي حُط بها الأبطال من النعيم الأبدي إلى الجحيم السرمدي . فكيف تناول بهاء هذه الثنائية، هل كان الماضي تلك النغمة الشجية التي ضاعت وسط ضجيج وفوضى الحاضر ؟ هل الرواية مرثية لماضي الطهر والبراءة ؟ .

لو نظرنا في ماضي الأبطال نجده ينطبق عليهم إذ طالما كان سجانهم الذي مارس جلده طيلة حياتهم بدءا بالراوي، صاحب الميول الناصرية والشعارات القومية وهو هنا يتطابق مع النزعات السياسية والمواقف الإيديولوجية للكاتب نفسه، فزمن الرواية تقريبا هو الثمانينات، لكن الراوي لا يزال يفتح باب شقته فيطل عليه " عبد الناصر مبتسما من

[16] - الإكزوتية أو الإغراب: الشغف بكل غريب وافد من بلد ناء وذلك لما يحمله من كل عجيب مجهول تنجذب إليه النفوس .

[17] - بهاء طاهر : الحب في المنفى، ص 133 .

[18] - المصدر نفسه، ص 138 .

صورته الملونة على الحائط[19] "، تماما مثل "بهاء" الذي ما زال حتى عصرنا الحاضر يكتب بوعي الخمسينات والستينات، ،م ظهرا تأثره بالحقبة والثورة الاشتراكية الناصرية .لقد ألف الراوي كتابا عن عبد الناصر بعد وفاته ظنا منه أنه سيخلد ذكراه ويحدث ضجة كبيرة لكن " لا هجوم على الكتاب ولا تأييد، بل صمت الموت والنسخ البائرة التي عادت لتتكدس في البيت هي شاهد القبر[20] "، وهو بإظهاره الولاء الناصري لا يكف عن إظهار مقته للحقبة الساداتية التي أضاعت كل شيء وأجبرته على قبول وظيفة المستشار الذي لا يستشير أحد، و كانت برقية تأييد فقط للرئيس المعجب بقلمه ترفعه إلى رئاسة التحرير، فنكون مع أروع مشاهد الوفاء حيث ،يغير كثير من الصحافيين جلودهم ليبقوا في مناصبهم، لكن يبقى الراوي أرملة الفقيد كما لقبوه في القاهرة . ما جعل الرواية في بعض أجزائها تنحو منحى خطابيا وتحمل بعدا دعائيا ترويجيا لبعض المواقف الإيديولوجية والتحزبات السياسية يكاد ،يفقد الرواية حكمتها على حد تعبير ميلان كونديرا (M .Kandira) .

كذلك الأمر بالنسبة إلى زميله "إبراهيم المحلاوي" المعادي لشعار القومية المسح بمجد البروليتاريا، يجري لاهثا وراء مكاتب الحزب الشيوعي التي يكاد ،يقضى عليها بملاحقتها من طرف الشرطة وتضييق الخناق عليها، يملؤه الفخر والسرور حين يجد " الرفاق هنا في منتهى الصلابة رغم كل هذا الاضطهاد[21] "، فهم حتمية التاريخ وحل أزمة أوروبا ومشكلة العالم طال الزمن أو قصر .

لقد شهد ماضي الأبطال على حضورهم وفاعليتهم في مجتمعاتهم الممزقة، بعمليات الاستبطان الداخلي لها ما جلب لهم نقمة الطبقة السائدة التي تجاهلتهم وصبت عليهم جام سخطها وغضبها، فيقدم "بهاء" بذلك صورة صادقة للأوضاع السياسية في البلدان العربية حيث لا ،يطلب من المثقف سوى أن يكون " تقني المعرفة والموظف الصغير العامل في البنية الفوقية، وليس في وسع الطبقات المحرومة أن ،تولده أو تنتجه لأنه ليس في المقدور أن

[19] - المصدر نفسه، ص 106 .
[20] - المصدر نفسه، ص 35 .
[21] - المصدر نفسه، ص 121 .

يتحدر إلا من الاختصاصي في الحقيقة العملية ولأن هذا الاختصاصي، يولد من اختيارات الطبقة الطبقة السائدة أي ما تخصصه هذه الطبقة من فائض القيمة لإنتاجه [22]" وهنا هجوم واضح من الروائي على الحقبة الساداتية وسياسات الانفتاح بعقد اتفاقيات الصلح والتطبيع مع إسرائيل وتغييب دور الثقافة والمثقفين في قيادة الجماهير وتوعيتها .

إن هروب الأبطال إلى الماضي له ما يبرره، إنه زمن الشعر والثقافة الراقية والتعاطف الإنساني، أيام كان راديو القاهرة يغني لبور سعيد والجزائر والملايو، أيام تلمع في العيون الدموع لسماع الشعر الحقيقي ،أيام البكاء على نكروما ونيرودا ودقات أجراس همينغواي التي تلهب القلوب والأجساد معا حيث كان للكلمة جرح ووقع .

إن تركيبة الرواية التي تراوح بين الماضي والحاضر تحيلنا على سوداوية وتشرذم الواقع فتكون تلك الارتدادات الفكرية والشخصية أو ذلك الحنين الوجداني في أحد مستوياته محاكمة للماضي إذ الراوي وزميله يدركان تماما أنهما " شبحان من عصر مات ... وأن عبد الناصر لن يبعث من جديد وأن عمال العالم لن يتحدوا[23] " .

الواقع أن بكائيات الراوي لم تكن بسبب وفاة عبد الناصر والأحلام القومية وإنما هو رثاء لأيام النجاح والمجد، للأحلام الشخصية، إنها لحظات الحديث الحقيقي عن الماضي .

لم يؤمن البطل بالثورة وتطلعاتها كمبادئ وكسلوك في الحياة وإنما ظلت مجرد كلمات تتردد في المقالات والندوات وهم يتحسسون ربطات العنق الغالية، شعارات يروون بها ضمأ الفقراء والفلاحين للعدل والمساواة . لم يكن يرثي الراوي في الحقيقة سوى أيام العز حين كان يرتقي في الصحيفة كالصاروخ ويسافر في كل المهام الصحفية للخارج " أيام كان السفر للخارج أصعب من السفر للقمر [24]" . كان يحن إلى الثروة، سيارة المرسيدس والشقة في جاردن سيتي والعملات الصعبة ... هذه التعرية تجعلنا نحس أكثر عمق المأساة : هل حال

[22] - جان بول سارتر : دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت ط 1، 1973، ص 35 .

[23] - بهاء طاهر : الحب في المنفى، ص 122 .

[24] - المصدر نفسه، ص 37 .

الأمة العربية خطير إلى هذه الدرجة حيث تسرب المرض حتى إلى مثقفيها الفئة الحامية القائدة التي لم تعد قادرة سوى على ترديد شعارات خاوية رنانة ؟ .

إن كل الانكسارات السياسية والضغوط الاجتماعية والعواصف التي تجتاح الساحة العربية والعالمية أدت إلى أن يكون الإحساس بالحاضر حادا، ما جعل "بهاء طاهر"يعود إلى الماضي لا ليحتمي به أو يحاول بعثه من جديد وإنما ليواجهنا به ويفتح أعيننا عليه فيخرص كل دعاة التقوقع وأصحاب النزعات التمجيدية الماضوية، إذ حاضر بهذا التفكك والبؤس يجعلنا نقسو على ماضيه ونشك فيه .

هكذا يفتح الكاتب الصفحات ويثير التساؤلات في رحلته الباحثة عن مواطن الخلل، أوصلته حتى الطفولة أهم مرحلة في حياة الإنسان " فهي الأساس في تشكيل جميع مناحي الشخصية وذلك لما تمتاز به هذه المرحلة من المرونة وقابلية الطفل للتأثر بكل ما يحيط به والتشكل به أيضا[25] " .

في الفصل الرابع نلتقي بالراوي الطفل الذي ظلت مهنة والده وأسرته الفقيرة وصمة عار تلازمه، فقد كان وضعه الاجتماعي سببا في تعرضه لإسالة دماء الجسد والروح وحائلا دون تمتعه بفرحة التفوق في الدراسة والحصول على الدرجات العالية التي لن تجر عليه سوى مزيدا من الإهانة والعداء أيام كان " الفقراء حفنة صغيرة في المدرسة وسط ملاك الأرض وأبناء الموظفين في المدينة [26]".

أما الطفل الذي ظل يطارد إبراهيم ولم يستطع التخلص منه فشقاؤه في نعيمه، في كونه ابن مالك الأرض في القرية وليس الراوي ابن الفراش، في أسلوب المعاملة الوالدية، في القصر الذي تحول إلى سجن يشهد كل ركن فيه عذاب وتنهدات أمه، في طبقته الاجتماعية التي تسرق جهد ومال الفلاحين لاقتناء كتب لن تقرأ وإنما تجلد وتطبع عليها الأسماء بخط النسخ المذهب .

[25]- شبل بدران : أسس التربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،ط 1، 1993، 71 .
[26] - بهاء طاهر : الحب في المنفى، ص 82 .

طفل بريجيت لا زال يردد حكايات النوم التي يرويها الوالد المحامي المهزوم بعد يوم الفشل الذي يقضيه في الدفاع عن الفقراء والنقابات دون أن يجلب له سوى المتاعب والأتعاب الزهيدة، فيعوض هزيمته بالنهار في عالم الحيوانات بالليل، حيث ينتصر سرب الحمام دائما على الثعلب الشرير . ولا زال يوم المطر نزولا لأمطار ذلك اليوم مع والدها في الغابة، يعرفها أسماء الأشجار والأوراق، ولا زالت أغصان كل شجرة دردار صديقتها وحاميتها من البلل وصراخ الأم التي كانت تظهر الخوف والعطف على أسرتها لكنها تخفي علاقة آثمة مع الدكتور مولر صديق زوجها تلقفتها حاسة الطفلة بريجيت وظلت كابوسا يزعجها . وهنا يظهر المضمون الإنساني للرواية بتأكيدها على دور الأمان العاطفي والعلاقات الأسرية التي تجعل الفرد مصدر قوة ونمو .

إن الفزع والوحدة والألم الذي يسكن جسد الرواية يجعلنا نظن أن الماضي قد يكون المخرج والملاذ، لكن استبطانات الشخصيات وارتدادات "بهاء" المتكررة أعادت النظر في علاقتنا مع كل شيء، وأولها مع العدو الذي ظل تقريبا منحصرا حتى الخطاب الفكري المعاصر في "الآخر"، فيطلعنا الكاتب على أعداء آخرين يضمهم إلى هذا الآخر الذي ساهموا في تشكيله وتضخيم صورته ليهونوا أو يتناسوا تأثير النظم السياسية، البيئات الاجتماعية والتكوينات النفسية للأفراد .

ج / سجال المواجهة والاستسلام :

رفض مثقفو "بهاء طاهر" أن يكونوا أبواق السلطة، لم يحملوا لواءها طمعا في خدمتهم، صمدوا في وجهها وآثروا الرفض والمواجهة، تلك هي النبرة التي تكررت طيلة الرواية لترينا أجمل مشاهد البطولة والتمسك بالمبادئ الشخصية، لكن كل تلك المحاولات كانت سيزيفية في عالم أحكمت الآلهة قبضتها عليه، فكلما لمسنا المقاومة والتحدي والوعي نجدها تنتهي بالاستسلام واليأس والسلطة القاهرة التي عبثا يحاول الأبطال تجاهلها أو الوقوف ضدها .

يرفض الراوي الصيغة الساداتية وسياسة الانفتاح ويبقى حالما بالإمبراطورية العربية التي ترفرف عليها شعارات الوحدة والقومية، حين نشر كتابه عن عبد الناصر كمحاولة

للمعارضة و إبراز موقفه، يصطدم بجدار الصمت القاتل وبالسلطة التي جعلته نسخا بائرة وأرغمت صاحبه المثقف الثوري، المستعد للاحتراق مع الجماهير على أن يكون المثقف في البنى الفوقية، كل همه المرتب " لن ينقطع المرتب وهذا هو المهم[27] " .

كما لا تفوتنا مواقفه الحماسية الانفعالية اتجاه ما يحدث في مصر والعالم ورغبته في تثوير صحيفته برسائله المطولة كل يوم يندد فيها بالاجتياح التتاري للبنان، لعله يوقظ فيها النخوة وفي كل العرب لكن " لا شيء غير الدبابات والقنابل تطير وتدك وطائرات تقصف وجنود إسرائيل الأصحاء يبتسمون ... وفي المخيمات يجري الأطفال العرايا والأمهات بالشباشب البلاستيك وهن يلطمن الوجوه[28]" .

يحاول إبراهيم بكل شجاعة الوقوف على حقيقة الأوضاع وفضح خطط وألاعيب إسرائيل، تمتلئ حياته أملا وحلما " من الشرق إلى الغرب تتحرك الدنيا وغدا سيتغير العالم كله[29]"، حتى في أصعب أوقاته حين شهد مذابح التقتيل الجماعي في "صبرا وشتيلا" سعى للصمود ونشر تلك المذابح، لكن بشاعة الواقع أطلقت العنان لدموعه وصيحاته الدينية مثل أحد الدراويش في حلقة الذكر.

وتستمر نغمة الرفض والمواجهة ولعن الوجود الموحش، يواجه ألبرت الإفريقي الملون حائط الاستعلاء بكل ثقة كما حارب ببسالة من قبل نظام الحكم الديكتاتوري في بلده غينيا، وبزواجه من بريجيت وجها صفعة للمجتمع ولقنا العالم درسا بالتخطي من سطوة قوانينه ومواضعاته، فينعما بعالم السعادة الخاص محا فيه الحب الذي نشأ بينهما أسباب العداوة وارتفع بهما عن نظرات الحقد والاستهزاء التي تلاحقهما أنى ساروا في الجامعة والسينما وحتى من جرسون المطعم الذي اعتادا الأكل فيه، لكن الرياح الآرية سرعان ما اقتلعتهما لتعلن الفشل لحنا ختاميا آخر يفسح المجال لقصة فشل أخرى .

[27] - المصدر نفسه، ص 198 .
[28] - المصدر نفسه، ص 158 .
[29] - المصدر نفسه، ص 97 .

وسط هذه الصورة القاتمة وا لكئيبة للواقع الذي فقدت فيه كل قيمة إنسانية، ينعم الراوي وبريجيت في واحة الحب، فما دلالة حضور هذه العلاقة وسط كل تلك الجرائم والمذابح ؟ .

طبعا بطل الرواية لم يكن صورة أخرى لميرسو الغريب (l'étranger) اللاانتمي الوجودي، المتجرد من كل العواطف، فقد ظل إحساس المسؤولية وتأنيب الضمير يطارده " ومن أنا لأستحق كل هذا الحب، أليس عارا أن أفرح كل هذا الفرح في هذا العمر وفي تلك الأيام ووسط تلك الحرب[30] ".

لقد كان ذلك الحب " إشارة لكل إمكانات الحياة[31] "، طاقة يستمد كل طرف منها مبررات وجوده، حاولا من خلاله أن يقولبا حياتهما بدل تلك الهيولى، فيصرح الراوي " لكم كنت سعيدا ... فجأة في تلك الأيام أشرق في ذهني أني حاولت كل شيء أن أكون ابنا طيبا وزوجا جيدا وأبا بارا وإنسانا له مبادئ وصحافيا له ضمير وعجوزا وقورا يدبر لمستقبل أبنائه بعد أن يموت[32] "، لكن مجددا تحليقهما لم يدم طويلا بأجنحة الشمع التي ذابت في شمس الحقيقة .

هكو "بريجيت" من جديد في أرض الشرور إنجاب طفل، لكن يوأد هذا الطفل الذي لم يولد بعد، وتوأد معه الأحلام ومحاولات النجاة ليعقب ذلك صمت ووجوم، لا فائدة كما صرحت بريجيت، لقد سئم الأبطال المواجهة أو حتى الهروب وهم في كل مكان. قرر الأمير حامد التخلص منهما وأمكنه بيده الطولى تدبير ذلك بسهولة ليخبر مدير الشركة "بريجيت" أنها لا تستطيع البقاء في الشركة لأن البوليس سأله عن تصريح العمل الخاص بها وهي لا تملك هذا التصريح، نصحها أن لا تبحث عن عمل آخر في المدينة للسبب نفسه. أما الراوي فقد جاءه خطاب من رئيس إدارة الصحيفة في القاهرة يخبره بأنه تقرر إلغاء وظيفة

---

[30] - المصدر نفسه، ص 187 .

[31] - سيد البحراوي : الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، أجيال وملامح، مكتبة الأنجلو مصرية، 2003، ص 110 .

[32] - بهاء طاهر : الحب في المنفى، ص 87 .

المراسل الصحفي في مدينة " ن " لأجل تخفيض النفقات على أن يتم تنفيذ هذا القرار خلال شهر من تاريخه .

قررت "بريجيت" العودة إلى النمسا وفي طريقها إلى المطار تحاول التخلص نهائيا من عذابها بالانتحار الذي وإن عبر عن الخضوع والاستسلام، إلا أن هذا الموت الإرادي قد حمل ضمنيا موقفا بطوليا فيه من الرفض وعدم الرضوخ للقوانين غير الذاتية، إذ بهذا الموت الذي اختارته هي تكون قد انفلتت من قبضة العالم ووضعت حدا لسلطته لتهرب إلى عالم الهدوء، فموت في عالم كهذا هو أكبر انتصار وغنيمة لأن قبول العيش فيه هو الهزيمة الكبرى " فالمنتحر يعرف قيمة الحياة بل هو يعلي عليها من الأهمية أكثر مما تستحق بدليل أنه على استعداد للتنازل عن الحياة نفسها إذا لم تجأ كما طلبها هو ...إنه يفضل الموت على حياة لا تكون من الخصب والامتلاء بحيث تستحق أن تعاش[33] " .

أما الراوي الذي رفض بيع الروح للشيطان أراد لعب ورقته الأخيرة، أحس أن هناك حسابا أخيرا يجب تصفيته في هذه المدينة حيث قصد قصر الأمير حامد لكنه أعلن الاستسلام بدوره أمام الكلاب الشرسة والأسياد "كنت انزلق في بحر هادئ... وكانت الموجة تحملني بعيدا تترجرج في بطء وتهدهدني ...والناي يصحبني بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام إلى السكينة[34] " .

هكذا نجح "بهاء طاهر" في التعبير عن رؤيته الاغترابية الانهزامية التي تجلت فكريا في مجموعة من الإشكاليات التي حاولنا الوقوف عند بعضها، إذ كانت هناك مجموعة من العوامل التاريخية و الحضارية التي عاشتها الفئات المثقفة منها: انهيار الأيديولوجيات، القمع على كل المستويات، الصراع الداخلي والعالمي...التي ساهمت في تفعيل الرؤيا.

[33] - زكرياء إبراهيم : هذه الحياة التي نعيشها : لماذا نعيشها؟ وما معنى الحياة ؟ العربي عدد 13، أفريل 1968، ص 25 .

[34] - بهاء طاهر : الحب في المنفى، ص 319 .

خاتمة :

هكذا نجح "بهاء طاهر" في التعبير عن رؤيته الاغترابية الانهزامية التي تجلت فكريا في مجموعة من الإشكاليات حاولنا الوقوف عند بعضها، إذ كانت هناك مجموعة من العوامل التاريخية و الحضارية التي عاشتها الفئات المثقفة منها: انهيار الأيديولوجيات، القمع على كل المستويات، الصراع الداخلي والعالمي...التي ساهمت في تفعيل الرؤيا.

إن وجود الفرد العربي وسط واقع مضطرب تسلطي ، أملى عليه إحساسا حادا بالمأساوية والقلق والقتامة، وقد تنامى هذا الشعور أكثر لدى المثقف خاصة وأن إحساسه بالتفرد يتراجع ليجبر على إتباع ما يقال . فكل يوم يرى تغير المعادلة العالمية ورجحانها لصالح طرف واحد ، وكل يوم يسيطر التشاؤم ويتفاقم الشعور بالخيبة والانهزامية والتناقض القيمي ، إذ يتفنن الطغاة في أساليب العنف والتعذيب في فلسطين وفي مختلف أصقاع العالم ، وكل يوم تثبت النظم السياسية العربية ولاءها وتبعيتها وتفشل في تحقيق استقلاليتها وإثبات وجودها وسط هذا التفاعل الحضاري الذي لم يعد لها فيه دور . فكان هذا الوضع الخارجي نسغا غنى النسق الفكري والجمالي لنص "الحب في المنفى" وأمده بروائية مميزة .